الحضارة الصناعية

للعلامة الفيلسوف برتراند رسل

لا تقوم الحياة الصناعية على مجرد النهوض بالاعمال الضخمة التي تتطلب استخدام العدد الكثير من العمال . فان بناء الاهرام كان عملاً ضخماً ولكنهُ لم يكن صناعيًّا . فالصناعة والحياة الصناعية على حقيقتها تنحصر في استخدام الآلات والوسائل الاخرى (كالسكك الحديدية) التي ترمي الى اختصار الجهد المبذول في سبيل الانتاج . وخير الامثلة التي تقرّب الى الذهن معنى «الصناعة» نجدهُ في اقامة قنطرة على ترعة لتحل محل « معدية » فاذا كان عدد الذين يعبرون الترعة قليلا كانت « المعدية » وسيلة اصلح من القنطرة لقلة الجهد المطلوب بذله في هذا السبيل ولكن اذا كثر العدد كانت القنطرة عملاً اكثر توفيراً للجهد المطلوب بذله

فالصفة الاساسية للصناعة هي بذل جهد مشترك لانتاج اشياء لا يقصد من انتاجها استخدامها لتستهلك بل لكي تكون هي وسيلة لانتاج اشياء اخرى للاستهلاك . ومن هذه الصفة الاساسية تجيء الصفات الاخرى التي تميز الحياة الصناعية

وابرز الصفات في الحضارة الصناعية هي تكوين المجتمع بحيث يكون مجموعة عضوية شديدة الارتباط فهو اشبه الاشياء بالجسم الانساني — وهو مجموعة خلايا — من حيث

[illegible]

فهي لا تستمد وجودها من وجود خلايا اخرى ولا تموت بموتها . ولكن مجموعة خلايا الجسم الانساني يمنحها هذا الاستقلال . فلكل خلية عملها ولكنها خاضعة للمجموع . واذا فقد عضو رئيسي قدرتهُ على الحياة اصيب الجسم كلهُ بالشلل او الموت . فهنا عملية معقدة فيها مكسب وخسارة . اما المكسب فلأنَّ تخصيص كل عضو بعمل معين واخضاع الكل لنظام واحد يجعل الجسم اقدر على العمل من طائفة من الخلايا متفرقة واكثرها استعداداً للتكيف بالوسط والاستفادة منهُ . اما الخسارة فلان فقدان الاستقلال في سبيل التعاون يجعل الجسم تحت رحمة طارئ يفقده الحياة جملة . وهذه المشابهة هي المشابهة نفسها بين الجماعة الصناعية والجماعة غير الصناعية

في الجماعات الزراعية تعمل كل عائلة على ان تكفي نفسها مؤونتها من كل ما يموزها.

أما في الحياة الصناعية فلا يوجد فرد يستطيع ان يتمتع بهذا الاستقلال . فالفرد هنا يشترك في جزء من عمل . ومن هنا لا بد ان تروج المبادلة والمتاجرة . فالفرد اصبح خاضعاً في حياته وحريته للمجموع . والجماعة الصناعية تصح بهذا التخصص وتوزيع العمل اشبه الاشياء بالجسم الانساني . فاذا اصيب عضو منها تمشى الشلل في اجزائها . وقد تصاب بالموت . فاذا تعطلت محطة من محطات توليد النور والكهربائية راحت المدن تتخبط في الظلام وشلت حركة النقل فيها ووقفت مصانعها عن العمل . وفي هذا المثل برهان كافر على صدق القانون الطبيعي وهو ان اكثر الاشياء دقة ونظاماً اشدها احساساً . ومن هنا كانت حياة الحضارة الصناعية اكثر تعرضاً للخطر والتخريب من الحياة التي احتفظت بالوسائل الفطرية البسيطة في الانتاج

وكلما ازدادت حياة الجماعة عضوية وتعقيداً كلما اكتسبت الحكومة فيها شأناً وخطراً . وباتت اعمال الافراد انفذ اثراً في حياة المجموع واكثرها تطلباً للمراقبة والتقييد لمصلحة الجماعة ومن هنا فقدان الحرية الفردية والمميزات الشخصية في الافراد

ولكن لكي نحسر الحرية لتكسب الحكومة والنظام يجب ان نذكر اننا نكسب في ظل الحضارة الصناعية نوعاً من الحرية هو التخلص من ضرورة السعي لتوفير ضرورات الحياة لان الجهد المبذول في هذا السبيل اقل في الجماعات الصناعية منهُ في الجماعات غير الصناعية ورغبات الفرد يقيدها قيدان : القيود التي تفرضها الجماعة والقيود التي تطلبها الحاجات المادية . ففي الحياة الصناعية تكثر القيود الاولى وتقل القيود الاخرى . فالحياة قبل الصناعة جهد مستمر للحصول على الحاجات الضرورية للجسم وهذا الجهد مرهق ومعيق للانسانية عن التمتع بشيء من المسرة او الجمال او المسرات . ولكن في ظل الصناعة يقل الجهد المبذول للحصول على ما يكفل مجرد العيشة وبذلك يتوفر للانسان الوقت للتمتع بنعمة التعليم والعلم والآداب والفنون فالصناعة تخلص الانسان من عبودية الطبيعة . ولكن لا يجب ان يفهم من ذلك ان الفرد اصبح اكثر حرية فان في الجماعات الصناعية يعظم نفوذ الجماعة وتتضاءل حرية الفرد

ان ما نسميه حضارة يمكن ان نقول عنهُ انهُ السعي لتحقيق اغراض ليست جوهرية من الوجهة البيولوجية لاقامة الحياة وقد نشأت الحضارات اولاً حيث كونت الانهر الكبيرة اراضيَ خصبة وبالاخص في مصر وبابل . لان في غير هذين القطرين انحطت خصوبة الارض كنتيجة لاساليب الزراعة الساذجة التي أتبعت فيها فاضطر السكان ان يهجروها الى غيرها ولكن حيث وجدت الدلتا وجدت جماعات قادرة ان تنتفع من سخاء الطبيعة فنشأت طائفة من الناس إستطاعت ان تخترع الكتابة والعمارة والحساب والفلك وسائر الفنون التي كان لابد منها لهذه الحضارات . ومع ان الطائفة التي اقامت قواعد الحضارة

ظلت تنمو وتزداد لارتقاء اساليب الزراعة وانتشار التجارة ولكنها ظلت اقلية ضئيلة . ومع ان الرغبة في نشر الحضارة ظلت عاملاً قليل الاثر في تقدم الحياة الصناعية فان في البلاد الصناعية اخذت الحضارة تنتشر على نطاق واسع ولذلك عوامل تمت الى اسباب اقتصادية . فان العامل الذي حصل على شيء من التعليم اكفأ من الذي لم يتعلم القراءة والكتابة على الاطلاق ومن هنا نفهم السبب الذي جعل البلاد الصناعية تعم التعليم الاجباري

فانتشار التعليم نزعة اصيلة في الحضارة الصناعية . وتجيء مع انتشار التعليم الاجباري نتائج اخرى ذات شأن خطير . واولها الديمقراطية السياسية التي لا تكاد تتحقق حيث تكون الطبقات العاملة جاهلة والتي لا مفر منها حيث تكون متعلمة . ولا يفهم من معنى الديمقراطية هنا انها مجرد اقامة نظام برلماني بل اريد ان احدد الديمقراطية بالنظام الذي في ظله يساهم كل رجل وكل امرأة بنصيب متساوٍ من النفوذ السياسي . وعليه فالديمقراطية السياسية هي النظام الحكومي الذي لا بدَّ منهُ لكل جماعة صناعية في حياتها العادية ما لم تنزل بهذه الجماعة طوارئ الحروب او الثورات

والآن لننظر في نتائج هذه الحياة التي ينعم بها الفرد في ظل الحضارة الصناعية. قلت ان حرية الفرد تتلاشى في علاقته مع الجماعة وتزداد الجماعة حرية في علاقتها مع الطبيعة ومعنى ذلك ان اعمال الفرد — او الناحية الاقتصادية منها على الاقل — تصبح خاضعة وتحكومة باعمال الجماعة او باعمال نظام واسع النطاق كشركات الاحتكار . ولكن الجماعة تحرر شيئاً فشيئاً من الوقوع تحت نير الحاجات الطبيعية الضرورية . ومن هنا كان السبب في ان الغرائز الفردية كحب الفنون وحب الاستطلاع والكشف عن المجهول تموت في الافراد . وتنمو الغرائز الاجتماعية كحب الحرب والتنظيم الصحي والتعليم الاولي

ويموت الغرائز الفردية تتحطم الشخصية الانسانية . ففي كل بلاد صناعية كالولايات المتحدة مثلاً — لا ينظر الى الاختلافات بين فرد وآخر بشيء من الارتياح . فالفروق التي هي حدود لعالم واضحة بين الافراد مكروهة ولا ينظر الى الناس الا انهم مادة صبت في قوالب واحدة . فالمنازل والملابس وادوات المنزل كلها من طراز واحد صنعت في معامل تخرجها بالملايين . ولا ينظر الى الآدميين ان يكونوا على غرار مخالف لتلك المواد التي صنعت من طراز واحد . ففي هذا الوسط تموت غرائز الفنون وحب الاستطلاع لان هذه الغرائز مميزات واضحة لشخصية الانسان

واختفاء الغرائز التي تبعث على تطلب الجمال وحب المجهول انما يخلق في الناس ميولاً مريضة . فهذه الغرائز تختفي في الافراد الذين حرموا من القدرة على ارضائها وراء شعورهم

وعلك عليهم حياتهم ومن هنا كان حب الناس لحوادث المثيرة للشعور . وحوادث القتل واخبار الفضائح والسرقات والتهويل وما اليها . فالجنون الذي تمثل بامرأة انما يؤدي لهذه الخلائق التي تعيش عيشة لا لون لها ولا طعم خدمة كبرى لأنه يذكي في نفوسهم عواطف محبوسة ويبعث خيالهم على الانتباه واليقظة ويكني في بواطنهم ميولاً مكبوتة . ولهذا السبب نجد الصحف التي تنشر هذه التهاويل والاخبار المثيرة للشعور مقروءة ومطلوبة لانها تدخل على نفوس اناس بلغوا من فرط الحرص على اسباب معائشهم الى حد الذلة والاستكانة وماتت في نفوسهم كل عاطفة قوية فلم يبق لهم الا ارضاء مخيلاتهم بأخبار الغير فهم يحبون القتل وأخباره لأنهم يحرصون على الخضوع للعرف والتقاليد المرعية وان كانوا في صميم نفوسهم يهوسون بحب الدماء . وهذا تعليل رواج التجنيد الاختياري لما اعلنت الحرب الكبرى لأن فكرة الاشتراك في معارك حربية يذكي في الناس خيالات قوية مثيرة للشعور وينتشلهم من ملل العيشة في المكاتب والعمل في المصانع ويغذي نفوسهم بشيء جديد . وهذا ايضاً سبب استعداد الشعوب الصناعية للاندفاع للثورات وارتكاب أعمال العنف لأن حب الهيج والثورة والخروج عن المألوف يكون امراً ضرورياً لأناس حبسوا خير عواطفهم وقتلوا في نفوسهم اجل الغرائز . ومن اخطر منازع الحضارة الصناعية انحلال الحياة العائلية فيها كنتيجة محتومة لاستخدام المرأة في الاعمال العامة لأن توظيف النساء له نتيجتان : من جهة تحررهن من قيود الرجل الاقتصادية فيصبحن مستقلات ويأبين الخضوع لقيود الزواج . ومن جهة اخرى يجعل تربيتهن لأولادهن امراً مستحيلاً

وقد تأصلت في الشعوب الصناعية تقاليد التزوج بامرأة واحدة منذ زمن بعيد فلم تظهر نتائج الحضارة الصناعية وأثرها في العائلة الا بعد وقت طويل . وحتى الآن لم تظهر نتائجها في اميركا حيث لا يزال للمسيحية بعض النفوذ . ولكن في اوربا بدأ الانحلال يبدو واضحاً . وقد عجلت الحرب ظهوره لأن النساء في زمن الحرب وجدن لهن اعمالاً واكتسبن رزقهن فعرفن الاستقلال الاقتصادي . ولقد اظهر الاختبار ان المرأة تتمرد على تقاليد الاخلاق المألوفة وتأبى ان تظل امينة لرجل واحد اذا تحررت اقتصادياً . ففي العصور التي سبقت الصناعة احتفظ الأغنياء بنسائهن كشيء مملوك لهم . واحتفظ الفقراء بالمرأة لأنها كانت شريكة في الكدح وتحمل مشاق العمل البدني . ففي هذه الحياة كانت العائلة وحدة اقتصادية . ولكن عندما تترك المرأة منزلها لتذهب الى المعمل او المكتب لتكسب اجراً تصاب الرابطة الاقتصادية بين الرجل والمرأة بوهن وانحلال . ومن الأمور المحتملة ان يتعود الناس بالحضارة الصناعية اهمال البيوت والانطلاق الى

المطاعم العامة فتتسع الخدمة في المنازل شيئاً فشيئاً . ويتعوّد الأطفال الذهاب الى المدارس مبكرين ويأخذون في تناول مأكلهم في هذه المدارس كل الوقت . وهنا يختفي الزواج وينحل . لأن المرأة تفقد في حالة كهذه ان تحتفظ بحريتها ولا تفقدها مع رجل ما . وينتهي بها المصير ان تكون مسألة الأمومة والأطفال مسألة تعني الأم والدولة ولا دخل للرجل فيها

وهذه النتيجة محتومة في الحضارة الصناعية . لأن الحياة العائلية كانت ملجأ الفرد وملاذه في وحدته . وحيث تبدو شخصيته وأفكاره وكل ما يشبع فيه الغرائز القوية لأن له حرية الفكر وحرية التصرف مع اولاده وزوجته . ولكن بعد اختفاء الزواج تتلاشى الحياة العائلية ولا يبقى للفرد الا ان يصبح ذرة تافهة في مجموع هائل وتموت الشخصيات الفردية والمميزات التي تفرق انساناً عن انسان

ومن نوازع الحضارة الصناعية ايضاً القضاء على الشعور بالتدين . ومرد ذلك ان في الحضارات الزراعية ينمو الشعور الديني لأن الانسان دائم الاتصال بالطبيعة . ومن هنا يكون تحت رحمة عوامل لا دخل للانسان فيها . فهو مضطر ان يخضع لعوامل المطر والجو والقيظ والبرودة وانفجار البراكين وطغيان الأنهر ولكنه في الحضارة الصناعية لا يرى العوامل الانسانية فيتبلد شعوره نحو الدين

وتنزع الحضارة الصناعية الى تدريب الناس على تقدير الأشياء تقديراً فنياً فكل شيء له قيمته على مقدار فنه لا على مقدار ما فيه من هذه القيمة . وحيث يشتغل الناس في تكثير الآلات لكي تكون وسيلة للاكثار من النتاج ويصبحون نفسيين اكثر منهم ذوي ذوق فني لأن اعمالهم لا تنطوي على غاية لها قيمة انسانية بل قيمتها نفعية محدودة . فالرجل الذي يعد السكة الحديدية ينظر اليه انه اكبر شأناً من الرجل الذي يستخدم هذه السكة [illegible] الرجل الذي يقرأ كتاباً انه مُتلاف وقتر ومال وبينما ينظر [illegible] الذي يجمع حروف الطباعة والرجل الذي يجلد الكتاب بأنهم جميعاً يقومون بأعمال نافعة ذات قيمة

ان المسافة بين الوسائل والغايات طويلة وهنا تبدو نوازع الحضارة الصناعية اذ تجعل الناس لا يعنون الا بالوسائل وينسون الغايات تماماً . فتنقلب الغاية من الانتاج كأنه هو غاية في نفسه . والصناعة لا تقضي على غرائز الفنون وحب الجمال في الناس فقط بل تلاشي خيالهم وأخلاقهم وزهاتهم لخلق حياة اجمل وفي هذا الخيال وحده نستطيع ان نجد مصدر كل عمل ومبعث كل فكر . فاذا اندثر هذا المصدر انحطت الحياة . فالانسان في الحضارة الصناعية تتضاءل حياته الى حد انه يعتقد انه مخلوق لكي يكون جزءاً من آلة كبيرة لا غاية لها الا الانتاج وان اهم ما يعنى به الانسان هو الناحية الاقتصادية . وصحيح ان الاقتصاد الآن هو همُّ الانسان الأكبر ولكن سبب ذلك ان الحياة الاقتصادية مريضة

صورة الامير عبد الفاضل

وقد اهداها الى كاتب المقال في مصر احد مؤلفاته منهورة بامضائه